الحقوق البدويّة في شرقي الاردنّ

بقلم حضرة المؤرخ بولس سلمان الروم الملكي الكاثوليكيّ

توطئة *

قبل ان نبحث عن النظام البدوي نقول : فُطر الاعرابي على حبّ العزّ والفخار فتصبو نفسهُ الى المكارم وشريف الاعمال . ولا يُخلد الى الذلّ والصغار مهما تجلّت له وجوه المصاعب والأقدار . وهو لا يطمح الى المعالي الّا لينال صيتاً بعيداً وشهرة واسعة بين اقرانهِ وفي عشيرتهِ . وقد قضينا بين ظهرانيهم حيناً طويلاً تمهّدنا بجلي البيان كيف يغار البدوي على شرفه ويؤثر المنون على العار والهوان . فهو الفخر يدفعهُ الى سامي الفضائل الطبيعية وهي عزّة النفس تنهض بهِ الى الانتقام او طلب الحق امام القاضي البدوي . وكم من مرّة ثارَ ثائرهُ لادنى امرٍ حطّ بقدره وخفض من حاله . سَلُوا ابطال البيداء عن الحرب وغوائلها فهي المثالب والقوارص التي اوقدت نيرانها واسعرت وطيسها . وبسببها تنازل رجالها وتصادم فرسانها وجُرّدت السيوف وسالت النفوس على حدّ الظُبات وفقاً لما قال الشاعر :

ارى تحت الرماد وميضَ نارٍ فيُوشك ان يكون لهُ ضِرَامُ
فانَّ النار بالعُودَيْن تُذكى وانَّ الحرب اوَّلها الكلامُ

وكم من شيخ يملك ثروة طائلة نزعت نفسهُ الى الشرف فأفنى مالهُ لاكرام الضيوف واصبح بعد طول الدهر فقيراً لا يُصيب الّا غُنَيْمات قليلة لا تكاد تكفيهِ مؤونة لحياتهِ . واذا دنت وفاتهُ جمع اولادهُ واورثهم هذه الكلمات الاخيرة : يا بَنيَّ الاعزّاء أفدوا نفوسكم واموالكم لضيوفكم تكسبوا الاكرام والاجلال . ثم يموت متبسّماً مسروراً ويا حبّذا ما يُذكر عنهم من العفو والصفح فيكون الواحد منهم تهيأ لقتل خصمهِ اذ تتجلى له عواطف الرحمة والشرف فيصفح عن عدوه وهو يقول :

وأحلمُ عن خلِّي واعلمُ أنَّهُ متى أُجزهِ حِلماً على الجهل يَندمِ

ولذلك حدّثني يوماً عبد المهدي قاضي العوازم قال : « نحن الاعراب نسعى دائماً

---

* اننا ننشر هذه الحقوق البدويّة لا نقصد غير وصف عادات البادية دون الحكم بصوابها او فسادها (المشرق)

في سائر احوالنا وراء الشرف نحيا ونموت لاجل المجد والعزّ . ولا نطلب حق الشتيمة والوجه والطيب والقصير والبيت والدم الّا لنستردّ ما فقدناه من الشرف لان اكثر حقوقنا تنشأ عن الشرف المفقود »

*

ولذلك نستطيع ان نحدّد الحقوق البدويّة بالكلام الآتي: « هي قوانين تقليدية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين وتهذيب الاعراب يعرفها ارباب القضاء ويجرون عليها وبها يعوّضون لصاحب الحقّ او لاهله ما فقدوه من الشرف او المال او الحياة » فهذا التحديد ينطلق على سائر الحقوق البدوية . ولقد يستخدم الاعراب كلمة حقّ بمعنى عقوبة ونحن سنستعملها بهذا المعنى في بعض الاحيان جرياً على كلام العرب

ومما هو حريّ بالاعتبار ان نظام الاعراب يناسبهم خير المناسبة وينطبق على طبائعهم حق المطابقة . وهم لا يميلون الى غيره الّا مضطرّين شأن الامم الصاغرة . وكثيراً ما سمعنا من افواههم : « ان قانون القفر خيرٌ من قانون الدُّوَل المتمدّنة » . وسألناهم عن السبب في ذلك فأجابوا بصائب الكلام قائلين: ان القانون البدوي يدركهُ الصغير والكبير دون إتعاب فكر تتناقلهُ القبيلة او العشيرة من دهر بعيد فاصبح راسخاً في اذهانهم لا يغيب عن خلَدهم ومحفوظهم . وليس فيه من التميزات الصعبة والمشكلات المعضلة ما يُقلق ارباب المحاكم المتمدّنة بل هو بسيط لانحصاره في شؤون الأعراب وامورهم القليلة . ولذلك يُحيط بهِ كل امرئ من ارباب العقول الضعيفة وغيرهم الى ما فوق . فان الراعي الحقير والحارس المسكين والتاجر والفارس والغني والامير يُدركون الدعوى ومجراها وما تحتاج اليه من الكلام في افتتاح الدعوى والاحتجاج لنيل الحقّ . ومن صفاته الحميدة ايضاً انه سريع المعاملة والتنفيذ لا تبطئ اجراءاته ولا يطول عليه الزمان ولا تؤجل دعاويه الى امد مديد بل تتمّ بجلسة او بجلستين كما يقولون »

ولا يعترضنّ معترض قائلاً : هذا الحكم السريع من ابواب النقائص لانه يدلّ على طيش وعدم تروّ في الدعاوي الكبرى التي تقتضي وقتاً طويلاً وبحثاً وافياً ونقداً دقيقاً . اجل ان الدعاوي الكبرى ذات الاهمية العظمى ينظرون فيها حيناً غير قصير

ويُسبرون غورها ويقلبونها من كل ابوابها فيمعنون في الفحص ويتعمّقون في البحث عنها ثم يحكمون فيها بعد مشاورة اهل الفطنة والدراية غير ان الامور الطفيفة يحكمون فيها بوقت قصير لما جُبلوا عليه من سرعة الخاطر وتوقد الذهن وخبرتهم بمثل هذه الاحوال الجارية في مضاربهم . فضلاً عن ان قانون العرب يريح صاحب الحق من دفع الاموال الباهظة التي تزداد كل يوم في المحاكم وتُفقر العباد وتصدّهم عن طلب الحق . سألت يوماً بدوياً : من تحب بين القضاة أقاضي العرب ام حاكم الدولة . قال : قاضي البدو أخيّر (١ من قاضي الدولة . ثم نظر يميناً وشمالاً وخشي من عين خفية تراقبهُ او اذن سرّية تسمعهُ فقال : « وارباب الدولة زين » (٢ فضحكنا طويلاً على كلامه هذا . وذكر لنا ان له في المحكمة دعوى طال عهدها ولم تتمّ معاملاتها الا بالاموال الوافرة التي تسمى مصاريفات وقال : ان القاضي البدوي يرأف بالفقراء ولا يأخذ رزقهُ من الضعفاء .

ولقد تختلف القوانين الاعرابية اختلافاً عرضياً من عشيرة الى عشيرة او من قبيلة الى قبيلة وذلك يتأتى من امر طبيعي . فلقد ظهر لارباب التفتيش عن عادات الامم البدوية ان القانون يكثر اختلافاً كلّما اقتربت العشيرة من المدن العامرة الآهلة بالسكان التي يسود فيها القانون النظامي المسطّر . وكلّما توحّد قانونهم كان السبب في ذلك ابتعادهم عن المواطن التابعة لنظام مدوّن . فان القانون الجاري عليه عرب بني صخر والشرارات هو واحد لتنائيهم عن المدن ونزولهم في البراري والقفار . على ان عرب المجالي القاطنين بالقرب من مدينة الكرك والعدوان والبلقاويين الساكنين بالقرب من السلط زادوا على قانونهم بعض الزيادات اخذاً عن النظام الدولي . فلا ريب ان المخالطة والمداخلة المتواصلة بين الحكام تفتح اذهانهم الى امور عديدة لم يكونوا ليعهدوها من ذي قبل . فاذلك اتسعت قوانين البادية كدخول موادّ مختلفة تختصّ بالايجار والبيع والشراء وغيرها مما لم يكن العرب ليعهدوها من قبل . فضلاً عن ان القضاة المتوقدي الادراك قد أدخلوا بعض السنن العرضية المناسبة للاعراب . على

١) أخيّر كلمة يستخدمها العرب في مقام التفضيل بمعنى خير مثلاً : فلان اخيّر من فلان اي خير منه ٢) زين هي كلمة يتداولونها في مقام الاستحسان بمعنى حسناً وبمعنى مليح ومحبوب ولطيف

ان القانون فيما يختص بجوهره هو وحيد في كل المضارب . ونحن حينما نتكلم عن العرب لا نعني بهم الّا الراتعين في شرقي الاردن الذين ذكرنا اسماء شيوخهم في مقالتنا عن الشعر العربي . وسترسم خارطة عمومية عن العرب وتبين مواقعهم واسماء اراضيهم في محاضرتنا عن القبائل العربية في شرقي الاردن

ومن انعم النظر في الأنظمة البدوية وجدها تامة في بابها تصلح لكل ما يطرأ على الاعرابي من الحالات في باديته وفي سائر اطوار حياته . هناك يجد المطالع عقوبات خاصة للجرائم الكبرى والهفوات الصغرى . فلا مراء ان قانوناً كهذا لم يُنظَم دفعةً واحدة بل تعاقبت عليه الازمان وتوالت عليه الأيام وقام في اثناء ذلك نفر من القضاة البارعين والرجال المبرّزين ألّفوا عنهُ الشوائب واصلحوا القوانين الماضية . وكانوا هكذا الحين بعد الحين يُلغون او يزيدون ما يرونهُ مناسباً ومطابقاً لاذواقهم وربوعهم الى ان استتبَّت له المزيّة الحسنى ووقف على حدوده الحاضرة . ومن باب المشكلات ان الاعراب الحاليين يجهلون اصلهم وواضع شرائعهم الحالية . فلا يعرفون الّا بعض الوقائع والمعارك فحفظوا اسماء ابطالها وخلطوا كثيراً من تفاصيلها بما اضافوه اليها من الزخرفة والامور الوهمية التي لم تنشأ الّا في مخيّلتهم . واذا سألناهم عن اصل نظامهم وعن واضعيه المشهورين اجابونا بهذه الكلمات الجامدة : « لا ندري ولا نعلم الله يعلم »

١ الانتظام في البادية والصفح

لمّا اشتبكت الحرب بين عرب الشرارات وعرب الحُوَيطات في ربيع سنة ١٨٨٤ وقصرت الاعنّة واشتجرت الاسنّة وتداعت الاصوات وتجاوبت الاصداء نال الظفر امير الحويطات عرار بن جازي . ولمّا انتصف النهار واتّقدت هواجرهُ واستعرت معامعهُ وكادت النفوس تهلك من شدّة العطش امر كلّ قائد فرسانهُ بالنزول عن الخيل . فانحدروا وجلسوا على مهاد الراحة وبينما الرجال صامتون من شدّة النصَب اذا برجل حُوَيطي ابتعد عن معسكره كي يسرق ناقةً من اعدائهُ فتقدّم نحو بطل شراري وقال : أعطني هذه الذلول والّا طُعنتَ أنت والشلاء . فقال لهُ الشراري : يا اخا العرب دَعْني من شرّك وجنّب من حتفك . قال الحويطي : عليَّ الطلاق من شاربي ومن

مالي وعيالي لاسفكنّ دمك ايها اللعين ابيتَ او رضيت . وما كاد ينطق بهذه الكلمات المهينة حتى رماه الشراري برصاصة في صدره افنت حياتهُ

وكان الحُوَيطي ولد صغير يبلغ من العمر سبع سنوات . وكانت أمهُ كلما ترعرع وتقدّم في مدارج الحياة تقول له : يا بُني مهجة كبدي دم ابيك يصرخ ويطلب الثأر . فيقول لها : والله ان جمعتني أرضٌ به لاهدرنّ دم الشراري متُّ او حييتُ

ومضت خمس وعشرون سنة وهو يسعى وراء القاتل ولم يجده . وفيما هو يوماً في بيت سطام بن فايز من بني صخر واذا بشيخ جالس على فراش ناعم شيخ مهيب قد كاد يطوي مراحل العمر ويقف على شفير القبر فسأل عنه وعرف انه قاتل ابيه فانتضى سيفهُ وضربهُ ضربةً شقّت رأسهُ شطرين وهرب

فمن هذه الحادثة يظهر جلياً ان الانتقام يُعدّ عند العرب من النواميس الشريفة يقيمون له منزلة رفيعة ويقرّبونهُ من الفرائض الضرورية المقدسة التي لا يسعهم التجنب عنها ولو طال عهدها . فان الضغينة تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد فيأتي الريح ويكشف الرماد وتظهر الاحقاد بالانتقام

ولو ادرنا النظر الى البلاد المتمدنة والدول المنظّمة رأيناها تقوم بردّ الحق بواسطة حكّامها وتستخدم اذلك الوسائط الفعّالة كالجنود والسجون والتخويفات والتهديدات الى غير ذلك فتحكم على الجاني وتقضي عليه القضاء العادل . على ان الاعراب كثيراً ما يرفضون حكم قاضيهم ليروّوا ظماءهم بدم الاعادي ويثأروا بالقتيل وينالوا طائلتهم بيدهم . وكم من رجل جمع اولاده على سرير الموت واوصاهم أن يأخذوا الثأر من احد أعدائه

وذكروا لنا حكاية اعرابي وضع يده في يد ولده ونظرهُ الى صدره ونظر اليه نظرة الحزن والحنو وقال له : يابني اموت وفي قلبي الحسرة والكآبة على ما مضى لاني لم اقدر ان آخذ ثأري بيدي من فلان قاتل جدّك والبي . ثم سلّمهُ البندقية والسيف والمدّس وعانقهُ وقبّلهُ قبلة الوداع وهو يقول : تذكّر ما اوصيتك به . ومات على تلك الحالة

وكثيراً ما رفع المُدنف يده على رأس اولاده واستحلفهم بالحبّ الوالدي ان لا يدعوا الدم يصرخ الى السماء صراخاً اليماً . ولقد يوجد اعتقاد في البادية بعضُ من انواع

الخرافات الجارية. فانهم يعتقدون ان دم المقتول يصرخ دائماً في الليالي الدامسة ويطلب من اقاربه او اولاده او من عشيرته ان ينتقموا له من عدوه وقاتله. ولقد ذكروا لنا احاديث عديدة عن هذا الصراخ. ولهذا فان الاعراب بعد موت القتيل ودفنه يضعون على قبره جثوة كبيرة من الحجارة يسمونها رجوماً فيقولون: ان دم القتيل يصرخ في الظلماء الى ان يُهدر دم عدوه. ولذلك يعتبرون من الواجب عليهم ان يأخذوا الثأر. وقبل الانتقام يذبحون ذبائح على تلك الرجوم مترحمين المدفون بان يُميطَ عنهم الاذى ويدفع عنهم الاضرار والنكبات

ولربَّ قائل يقول: الى متى تدوم عواطف الانتقام في نفوس الاعراب؟ فنجيب ان الطوائل والوَتَرات تدوم مدى العمر ولا تُمحى من صدورهم الا حينما ينتقمون ويروون غليلهم. واما الذين يدفعهم عشيرهم على اخذ الثأر فهم أولاد القاتل او المهان واقرباؤه لا بل عشيرته كلها كما قال بدوي شرازي: كل عشيرة تشاطر افرادها الفرح والترح. غير ان بعضاً من الابطال وارباب المآثر الشهيرة في الحروب يركنون الى بسالتهم وشجاعتهم ولا يرضون بان تذهب عشيرتهم طلقاً فيرفعون راية بيضاء على رمح يدعونها راية الثأر ويطوفون حول المحلة وهم يهتفون: هذه راية فلان شيخنا وبطلنا (وبهذا الكلام يشيرون الى قاتلهم) فنحن فقط نقوم بواجب الانتقام. فتسكت الحركات ويهدأ الروع في المضارب لان هؤلاء قد تعاهدوا على الانتقام

وتراهم ينتظرون بصبر عجيب الفرصة الموافقة لنيل امانيهم. ويقدمون على هذا الامر الشنيع بنفس هادئة وسرور عظيم. واذا اتتهم رغبتهم لا احد يُعارَض من عشيرتهم لان الغضبَ يحلّ على هؤلاء الرجال الذين القوا على عاتقهم نتائج اعمالهم فهم دون غيرهم يُطالَبون بما جنَت يدهم من المآثم والجرائم. وهم ايضاً يدافعون عن انفسهم. واما الذين تصيبهم سهام الانتقام فهم اولاد القاتل واقرباؤه الى الدرجة الخامسة كما سنبيّنه في محله

فاذا هُدر الدم في البادية يضطربُ الاعراب كلهم وتستعر النفوس غضباً ورجزاً حتى تأخذ الثأر وفقاً لهذا المبدأ الجاري مجرى السنّة: العين بالعين والسنّ بالسنّ والدم بالدم. واذا انتقم واخذ حقهُ من عدوه فلا احد يطالبه بشيء بل يقرظونهُ لانهُ قام بواجب مقدّس

يحكى ان بلقاوياً قتل عدواً له من عرب العجارمة كان يترصده منذ زمان طويل لانه قتل اخاه واتى ذاك البلقاوي عجرمياً فصافحه وعانقه وقال له : هنيئاً لك لانك قتلت عدوك بخديعة لم يسبقك اليها احد. فمن هذه الحكاية يظهر ان صاحب الانتقام لا يُطالب اذا اخذ حقه من عدوه

بيد ان ارباب الحق الذين يعجزون عن الاخذ بالثأر لقلتهم او لضعفهم او لبسالة عدوهم يلتجئون الى امير كبير من عشيرة اخرى يُعرف بجرأة صدره ورباطة جأشه وثبات جنانه فهو ينتقم لهم من عدوهم ويطالب القاتل ويلزمه بالقيام بحق الدم

ومن تأمل في عادة الانتقام حكم انها بربرية لا يُقدم عليها الّا الامم المتوحشة. اجل ان ذلك لمن الصحة على جانب كبير غير انهُ لولا وجود هذه السنّة في البادية لعدت القفار الاعرابية دارَ حرب وساحة قتال لان المجرمين لا يهابون قتل النفوس البريئة اذ لا رادع يردعهم ولا سيف يمنعهم فان السنّة الدم بالدم تصدُّ الاشرار عن جرائم كبرى. ولذلك يندر القتل في البادية. وخوفاً من العقاب لا يهدر البدوي دم المسافرين بل يسلبهم ثيابهم واموالهم. ثم ان العرب يرحلون على ظهور نياقهم طلباً للرزق من الفزوات البعيدة على انهم يتجنّبون القتل لئلّا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام. وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام يسافر فيها المرء غير خائف من صولة الاعداء بنفسه وان سلبوهُ مالهُ

على ان عواطف الشفقة والحلم تغلب فيهم مرات عديدة على حب الانتقام وتحمل الاعراب على الصفح. ولقد يذكر التاريخ القديم حكايات وفيرة تشير الى شهامة نفسهم وكرم اخلاقهم. ولدينا حوادث كثيرة في ايامنا الحاضرة تدلّ على عفوهم لاعدائهم. ودونكم النادرة الاتية: الثار تُعشّى في مضارب بني صخر والكلاب تنبح فتدعوا المسافرين الى خيمة الشيخ فواز. واذا بشاب لطيف قد نزل عن فرسه وحيّا الضيوف قائلاً : السلام عليكم. فقالوا: وعليكم السلام. قال : حيّاً الله الرجالَ. قالوا. حيّاً الله الرجل. قال: العوافي يا غانمين. قالوا: حيّاً الله الغانم. ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عند العرب اياماً طوالاً لا يسألونهُ فيها جهة القصد الى ان حان وقتٌ طغاه فيه الشيطان فاستطبه في زلّة كبرى. رأى ابنة الشيخ فسُحر بجمالها ولمّا انسدل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر. فذاع الخبر باقلّ من لمح البصر

فلحقهُ اخوانها الثلاثة وكان كلّما تقدَّم اليهِ احد يضربهُ برمحهِ فيرميهِ مجندلًا على الارض اخيرًا لحقهُ العرب وفرسانهم. فانهزم الى ان لقي خربوشًا (١ وكان على بابها شاب في مقتبل العمر فصاح بهِ وقال: يا ابا رشيدة انا في وجهك وفي مرقد عيالك. قال: لقيتَ خيرًا ومرعى واماناً. ولمَّا اقبلت العشيرة تطلب الابنة وحقّ الدمّ أرجعها الشاب وقال: هو البيت يحمي الطريد والشريد. هو الوجه يدفع صدمات العدوّ. فرجع القوم صامتين. وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت: سوَّد الله وجهك هذا ابن عمي وخطيبي قد طلبني من اخواني فوعدوه الى ما طلب. وقد مهَّد الصبات كي يتزوَّجني اذ قاتلَ اولاد عمهِ. فامتقع لونه وتغيَّرت هيئتهُ واصبح وجهه كوجه الاموات. على ان صاحب الخربوش اكرم مثواه في تلك الليلة. وأعدَّ له خيمة العرس وزوَّجه بها. ثم صالحَ العربَ مع الشاب وسالَمهم وعاهدهم بان لا يُنزلوا بهِ ضررًا. فهذا مما يدلّ على علو النفس وشهامتها فهذه العواطف النبيلة لا تكاد توجد بين اصحاب التمدّن لان صاحب البيت قد صفح عن قاتل اولاد عمهِ وعن خاطف خطيبته وصالحهُ مع العرب ولم يدفعه الى كل ذلك الّا سموّ النفس وحبّ الذكر

وكم من مرَّة سمعنا في مضارب الاعراب حكايات كثيرة تدلّ على حلمهم وعفوهم فمنهم من اكرم قاتل ابيهِ وعارق بيادرهِ وخاطف ابنتهِ. ومنهم من كان مستلًا سيفاً في سورة الغضب اذ ردَّه الى غمدهِ كي يُصيب صيتاً بعيدًا بين الاعراب لاسيما في عشيرته. وكثيرًا ما ينبض نابضهم ويهيج هائجهم وتتصادم الجماعات فيقوم بهم شيخ نال من الدهر رزانة وحكمة فيحاجزهم ويوادعهم ويصلح ذات البين. وربما كان مهاناً او مشتوماً فيقول مثلًا: أصلحْ تجدْ. اي من اصلح وجد الشرف او وجد المعروف. ونجد في خيم العرب اناسا ثابتي العقل راجحي الحلم وقورين في آرائهم هادئين في حديثهم فهؤلاء هم الحكماء في البداة نصيبهم المولى لوضع السلام

٢ صوت الشتائم

قبل ان نذكر عقوبات اهل القوارع والشتائم اي كل ما يصدر من اللسان فيجرح فؤاد القريب او شرفه او يهين اهلهُ او اقاربهُ وعشيرتهُ علينا ان نورد بعضا من لواذع

(١ الخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عامود واحد

اهل الحيم تفكهة القرّاء. ومنها يُستدلُّ ان شتائم اهل المدن تختلف اختلافاً عظيماً عن قوارص اهل البادية لان النطق وتصوير الافكار في الاذهان يختلفان باختلاف المواطن والعشرة والذوق والطباع وما يؤثر كل يوم من المناظر او يطرق على آذانهم من الكلام. وليصفح المطالع اللبيب عن تجاسرنا في ايراد ذلك لاننا لم نسطر الّا اللطيف المستحسن

يقول الرجال لبعضهم في مقام التسلية والمازحة: قبّح الله وجهك يا فلان. او: الله لا يعطيك العافية. او: الله لا يعوّضك خيراً. ويقولون: يهدم بيتك ما احلاك. ويخرب دارك ما اكذبك. او: الله لا يُيسّر لك سبيل. يا لله لا يفكك من تعاسير دنياك

وفي اول الغضب يقول بنو صخر: أرعْ أي أنظرْ. ويقولون: يَرْ (اي ما هذا) إخسْ من رجل (اي يا لك من رجل خسيس). وفي احتدام الغضب يقولون: الله لا يرحم مراقيد والده (اي كتفه التي يرقد عليها). واذا كذب احدهم يقول كبير الحاضرين: «الكاذب يلتعن والديه ويُقصّف عمره. فلان ملعون الوالدين». وهذه الكلمة تكاد ترد في كل عبارة من عباراتهم

ومن شتائمهم ما يقرب مما اعتاد عليه اهل سوريا ومصر كشتائم الاب على ان العرب يتجنّبون لعنة الدين لما فيها من الاهانة الكبرى للمولى عزّ وجلّ. غير ان الاموات لا ينجون من شتائمهم بل تهطل عليهم المسبات المديدة. ونعجب كل العجب كيف ان الاعراب يحترمون الاجداث والمقابر ويحافظون على رفات الموتى من الاهانة ومع ذلك لا يدور لسانهم في فمهم الّا لينطق بالشتائم على الاموات فيقولون: فلان يرحم على فلان (اي يشتم على امواته) ويقولون: الله يحرق قلاع بيتك (وهي الاوتاد والأطناب). ولا يتركون عضواً من اعضاء الانسان الّا ويُنزلون عليه نار الغضب الالهي. وسألت احد الاعراب يوماً وقلت: لماذا لا تتركون الاموات يرقدون رقدة سعيدة بل تقاقونهم بسباتكم. فقال: الشتائم لا تغير شيئاً من حالة الاموات ولكن قد اعتادت ألسنتنا على ذلك وهي كالدخان تتصعد في الهواء

والصخور حينما يسبّون يقولون: إيس. ويدهم على قرابيب السيف ليلتضوه ويضربوا به. ويقول عرب الصقر: يَلْ (بمعنى ويل) ومنهم من يقول: يستر على

نظرك. وكان الاقدمون يقولون بالمعنى نفسه: بيّض الله عينك وسوّد المولى وجهك. ومنهم من يقول: قبحاً لهذه اللحية. او: قبّح الله هذا الشارب. او يقطع رباطك وجباطك (اي الخيمة والمرعى). ويقولون: يطفي نارك ويهدم اطنابك. والنار هي دلالة الكرم فكأنهم يقولون: يخسع المولى تلك الضيوف فتصبح ذليلاً مهانا. ويقولون هرع. اي انت ايضاً في مقام التحقير. ومن كلامهم: عسى مراحك اخضر. وهذه دعوة كبيرة لانهم بها يطلبون موت المواشي كي تبقى المراعي خضراء.

ويقال ان الشرارات هم اقوى العرب على ايراد السبّات بصورة غريبة. ومن ذلك ان رجلاً لقي شرارية فقال: هل تقدرين ان تبيّني لي ما هي اعظم الدعوات عندكم. فقالت: الله يكفيك شرّ الدعوات. فكرّر عليها الطلب فقالت: دونك «الله يقطعك من كل ما يميل ظلّهُ». هذه اكبر دعوة عندنا. والحق يقال لا شيء في الدنيا الّا وله ظلّ اي يحرمك المولى من كل ما في الدنيا. وللنساء شتائم خاصّة تضرب صفحاً عنها لقبحها

ولقد يعسر على البدوي احتمال ادنى شتيمة او دعوة صُوّب بها. وذلك يُستدلّ مما ذكرناه عن حبّهم للمجد والشرف وفقاً لما قال شاعرهم:

لا يسلمُ الشرف الرفيع من الاذى حتى يُراق على جوانبهِ الدمُ

فانهم يعدّون الشتيمة اشدّ تأثيراً من حدّ السيف. ولقد يستعملون في تشابيههم واستعاراتهم قولهم: لا يزال كلامه بقلبي كحدّ السيف او كسهم حادّ. والسبّات تثير الحروب في البادية وتحمل اهل المشتوم او المشتوم نفسه على الانتقام. يروى ان شاعراً من بني حسن تطاول في الكلام فهجا ذيبة ابنة الشيخ عودة ابي تايه امير الحويطات. فلما ورد الشاعر الى مضارب الامير قال له عودة: قبحا لهذه اللحية يا قذّاف المحصنات وشاتم الآنسات يلسع لسانك كلسع الحيات. فأثّر هذا الكلام في قلب الشاعر تأثيراً شديداً. وخرج الشيخ من خيمته وقال: والله لئن اكتحلت عيني به او جمعتني به ارض لأهدرت دمه الى ان يحول بيني وبينهُ ما لا استطيع دفعهُ. فهرب الشاعر كئيباً ولم يأكل طعاماً عنده فوجده اعرابي وقال له: يا ابا قِذلة يا شاعر بني حسن على ما انت مجمع الآن. فقال: على ان اتخذ الليل مركبا فان السير فيه اخفّ عليّ وطأة. قال: هذا هو الصواب والرأي ان يكون معك رجل تستأنس به في الطريق. فتقلّب وجههُ

وقال: السيف في عاتقي فالي حاجة الى مؤنس غيره. ولمّا ابتعد في البرّية امر الشيخ عودة احد عبيده فلحقهُ في الخلاء وقتله على هجانه

وقد حكى لي عبد المهدي قاضي الموازم ان ارباب الشتائم يعذّبون باقسى العذابات. فان رجلًا من العدوان رفع يده على ابيه وقال: اخس يا شايب. فسمع بذلك علي الذياب شيخ العدوان فامر بقطع لسانه. ويحكى ان رجلًا من العشيرة نفسها بصق بوجه عدوّه فامر عليّ بان تحلق لحيته الى نصفها فقط. ومن شتم عند عرب الشرارات والصخور يدفع للمشتوم فرساً او سيفاً او بعيراً او ثلاثين ريالًا. والشاتم عند العدوان يُضرب بالسياط حتى يسيل الدم من اعضائه. وكثيراً ما يضعون دبساً على وجهه ويربطونه باوتاد فيأكله الذبّان. او يربطونهُ ويوجهون عيونه الى الشمس حتى يموت ويُهذّب الاشرار ويرجعون عن غباوتهم. والسلطان عليّ الذياب شيخ العدوان لا يرحم الشاتم. وقد رآه كثيرون يضرب الثالبين والشتّامين بقضيب او بجلدة مؤلمة

ويروى ان بدويًا اهان والده اذ رفع عليه هجانه (وهي عصاً صغيرة) فالزمهُ القاضي بان يحرث ارض ابيه مدة سنتين. وقد روى عبد المهدي الحكاية الآتية قال: قدم شيخ هرم الى قاضي البلقاء ابن قلّاب وقال: ويش بلك يا عواد بن قلاب يا فكّاك النشب برادٍ لي ربّيتهُ حتى نشأ وكبر واليوم قد جرّني بجديلتي الى خارج الخيمة وشتمني. فقال لهُ القاضي: اذهب يا شايب ما صنعه ابنك بلك سيصنعه به اولاده في المستقبل. وحكم على الولد بان يبني خيمة لابيه ويدفع له خمسين نعجة ليكرم بها الضيوف. وقد تمّ كلام ابن قلاب فان اولاد الابن قد جرّوا اباهم الى خارج الخيمة ولما انتهوا به الى الموضع الذي اوقع اباهُ فيه قال لهم: كفاكم ايها الاولاد الاشرار الى هنا فقط جررتُ ابي. وتذكر بحكم ابن قلاب (١ (لهُ بقيّة)

---

١) هذه القصّة يروي العرب شبيهاً بها في ابي أخزم الطائي ومنها مثلهم: «يُقْشِبَةٌ أعرفها من اخزم» (المشرق)